بين مصر والسودان :

قصة الروح ...

للأستاذ عثمان طه شاهين

أخذت الحضارة تصلح على ضفاف النيل ووديه منذ أن بدأ الإنسان يشتغل بالزراعة وبدأت حياة الاستقرار وإنشاء الحكومات ، وحيث أن المصريين — كما يقول هيرودوت — هم أقدم أمة متمدينة على الأرض فقد أخذت حضارتهم تنبث إذن على ضفاف الوادى متجهة مع الماء نحو الجنوب ، تاركة فيه رواسب متباينة من هذه المدنية القديمة ، وعلى هذا الأساس فقد بذرت البذور الأولى من قصة هذه الروح ، ثم إن هذه الصلة قد تكونت عن صدق وإخلاص لأن السودانيين كانوا يدينون بالدين المصرى القديم ويتكلمون اللغة المصرية .

يرى المحدثون من الباحثين أن معالم الحضارة المصرية القديمة والثقافة العربية قد تسربتا إلى السودان الشمالى عن طريق مصر ، وقد استطاع هذا الأقليم أن ينتج فى وقت ما حضارة شبه مصرية من حيث طابعها ومظهرها ، ومنه خرج الغزاة الذين أسسوا إحدى الأسر الفرعونية كما أنه أقرب من حيث ثقافته وحالته البشرية العامة إلى مصر من أقليم النوبة الشمالية نفسه مما يرجح الأخذ بأن قصة هذه الروح تقوم على دعائم ثابتة ، وعلى أركان وطيدة راسخة تمد الروح فى جهادها العبقرى للتخلص من وبقة الاستعمار .

فالروح فى الشمال لم تستكن يا صاح — فى تاريخها الطويل — للغزاة الفاتحين ؛ فإذا نظرنا إلى غزاة مصر من الأغريق والرومان فأنا نجد أنهم لم يفلحوا فى فرض طابعهم على الحياة المصرية ، ذلك لأن هنالك قوة حيوية كامنة فى نفوس المصريين تستحثهم على الدوام وتوجههم للثورة على الغالبين ، فغدوا هم غالبين منتصرين ، مسيطرين على المجرى الطبيعى لوادى النيل ؛ ومن هنا ندرك أن الروح المؤمنة الشاعرة تنتصر على الدوام لأن رسالتها تنبعث من قوى الإيمان الصادق .

وإذا انتقلنا مع الزمان نقلة سريعة باحثين عن الأثر الذى تركته الحياة العربية فى جنوب الوادى فاننا نلمح تجاوباً سريعاً فى حياة الروح فى الشمال والجنوب ، ذلك لأن الآلام واحدة والآمال واحدة كذلك ، ومرجع ذلك ومرده إلى وحدة اللغة والدين والعادات والتقاليد ، لأن حياة الأمم — كما نعلم — لا تتكون إلا عن طريق هذه النظم الاجتماعية الكبرى التى تعبر تعبيراً صادقاً عن التطور الطبيعي المرموق ، وعلى هذا فالإيمان الذى يدعو إليه أبناء الشمال عن الجلاء ووحدة الوادى يجد سبيله النافذ إلى أبناء الجنوب فهم يستمسكون به ويدافعون عنه ويضحون فى سبيله بأغلى ما يملكون . فالروحان المتعانقان فى الشمال والجنوب يؤمنان ويجاهدان ويعملان ...

ولكن ما هى العناصر التى تمد هذه الروح وتذكيها ، وما هى الآثار التى يخلفها هذا الإيمان ، وما هو المدى الذى تتطلع إليه هذه الروح فى غدها القريب السعيد ؟ كل هذه النتائج يتلمسها المتتبعون لسير الحوادث فى جنوب الوادى فى هذه الآونة الأخيرة ؛ ذلك أن حركة وادى النيل قد أخذت تظهر منذ أن هب المخلصون من السودانيين تلك الهبة المروعة والتى تمخضت عن حوادث سنة ١٩٢٤ الدامية إذ قتل فيها من قتل وشرد فيها من شرد ، فكانت تلك الحركة إذن وقوداً يذكى الروح الشعبية فى جنوب الوادى ، وقد وجدت تلك الحركة صداها فى نفوس الشعراء من شباب ذلك الحين فانبعثت الألحان الثائرة من عبد الله بن عبد الرحمن ، ومدثر البوشى ، وعبد الله البنا ، وصالح عبد القادر . فكانت الشرارة الأولى للروح الثائرة المؤمنة ...

وإذا نظرنا إلى قصة الروح فى الشمال فإنا نجد أن الحملة الفرنسية قد كان لها دور بعيد فى تاريخ هذه الروح ، إذ كان الفرنسيون أول أمة غربية هبطت مصر فى تاريخها الحديث واستولت عليها ، وبهذا فقد اتجهت أنظار الدول الأوربية إلى مصر وغدا لها فى تاريخ الروح الأوربية طور جديد ؛ أضف إلى هذا أن انجلترا قد أخذت تهتم بمصر اهتماماً عظيما وذلك لمركزها الجغرافى المرموق ، وأخذت تعمل — بالتالى — للحيلولة دون وقوع مصر فى يد دولة غربية أخرى ، ومن هنا تلعب قصة الروح دورها الذى انفردت به من بعد على مدى التاريخ ؛ ومن

هنا ظهرت لجنوب الوادى مكانته فى نظر السياسة الانجليزية كما هو معروف .

ومن البداهة أن يلاقى المباقرة من العظماء والمجاهدين والفنانين الآلام المبرحة فى سبيل الوصول إلى القمة فى حياة الروح ، ذلك لأن التخلص من طبيعة الأرض يحتاج بهم من الانفلات والصعود فيجاهدون ويجاهدون ، ومن البداهة كذلك أن تلاقى الأمم هذه الآلام فى تاريخها للوصول إلى العزة والكرامة والاستقلال ، فالإيمان والمثابرة شرطان ضروريان للروح فى سبيل تلمس مثلها العليا الكريمة ، والغاية قريبة — مهما بعدت الشقة — إذا دعمتها إرادة قوية وإيمان مطلق .

كانت الروح التى نادى بها جمال الدين الأفغانى مشتعلة وهّاجة ، إذ لبث فى مصر سنوات يتصل بالطلبة من كل أرجاء العالم الإسلامى ويبث تعاليمه ومبادئه فتجد الاستجابة المؤمنة في نفوس أبناء الأزهر بشكل لم يعهد له مثيل فى العصور الحديثة ، وأخذ الإمام محمد عبده يعيد للفكر قدسيته وللدين مكانته من حيث النظر العقلى السديد مما يذكر الباحثين بابن رشد حينما أراد أن يؤاخى بين الشريعة والحقيقة ، ومن هنا كان لهذه الحركة صدى بعيد فى الجنوب فارتبط الجهاد على الإصلاح والإيمان كما يرتبط اليوم على الجلاء والوحدة ، وكان ذلك النشاط المرموق يستمد قوته وبقاءه من الحركة المرابية فى الشمال ومن حركة المهدى فى الجنوب ، وعلى هذا فقد تلاقت الأكف والقلوب والحناجر بالدعاء والتضحية والإباء ...

أما اليوم — فى حياتنا العاصرة الرشيدة — فقد أخذت الروح فى الشمال تعبر تعبيراً صادقاً عن إيمانها بالجنوب ، وأخذ الأديب السياسى الفنان هيكل باشا يصوغ هذا التعبير إذ قال : « إن مصر لم ترد فى يوم من الأيام سيطرة على السودان ولا تسلطاً على أهله ولا استغلالا لموارده ، ولكنا ونحن نعيش فى واد واحد تتحدد فيه مرافقنا واقتصادياتنا ومقوماتنا جميعاً لا يستطيع أحدنا أن يستغنى عن صاحبه فى الشمال أو فى الجنوب ، كما أن أهل الغرب طالما كرروا ويكررون أن الأمم الصغيرة خاصة لا يمكن ان تعيش وحدها بل يجب أن تتكتل لتصبح قوية قادرة على التعاون ، والأمم لا تتكتل إلا إذا تجاورت ، وليس هناك تجاور أقرب من تجاور السودانيين والمصريين » .

وأخذت الروح فى الجنوب تعبر تعبيراً صادقاً عن إيمانها بالشمال وتجعل هذا التعبير فى القوى المذخورة التى ادخرتها الأمة لوفدها الأمين ، وفى هذه الآثار القوية المتجلية فى وجود الشعب ومشاعره وأحاسيسه وفى الأفكار التى يبعث بها الجنوب على صفحات الصحف المحلية والخارجية وفى الوثيقة الدموية التى خطها الشباب بقلبه وروحه ودمه ، وفى كل مايحدث من ثورات ويسيل من دماء تعبر عن هذا الإيمان وتكشف عن طبيعة الروح وهى تتخذ طريقها للتعبير ...

آمنت الروح على ضفاف الوادى بأنها ستنال حريتها وكرامتها ، وكان من طبيعة هذا الإيمان أن تتجاوب أنغام التضحية والفداء فأخذت القلوب تتلاقى فى الشمال والجنوب مؤمنة برسالة الحرية والإخاء داعية لأنغام الجهاد ، فسالت الدماء الطاهرة على قرى الوادى مؤذنة بميلاد الفجر الجديد ، وارتفعت الحناجر منادية بالثورة فى شباب الجامعة فى الشمال وفى أروقة العلم فى الجنوب ، ولفظ الشهداء أنفاسهم الأخيرة وهم ينادون بالاستقلال للوادى الكريم ، فأذن المؤذن بميلاد الفجر الجديد .

نعم ، قد أراد الوادى اليوم أن يكون خالصاً لبنيه ، وإذا أرادت الأمم شيئاً فهى واصلة إلى ما تريد . فالروح إذن إنما تعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيس أبناء الوادى ومشاعرهم وتترجم عن مواطن القوة والكمال فيهم :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ... ولا بد للقيد أن ينكسر

ذلك لأن إرادة الحياة — كما يقول الشابى — إنما تخلق بالأمم القوية الشاعرة التى تؤمن برسالتها فى الحياة وبحقها فى الوجود .

يا إخوان الطفولة وياحماة المرين ! انظروا إلى الأسد البريطانى يفغر فاه ليلتهم القوى المذخورة فى النفس . فلتكن يقظين ، فالانجليز معكم يا إخوان يسيطرون على كل شبر فى الجنوب ، وينبثون بينكم فى كل مكان ، ويصرفون الأمور بعددهم العديد الجم ، فكونوا يقظين حريصين ناظرين ، واعلموا أن جهادكم